وأما السبب فى قلة المترسلين وكثرة المعلقين وعزّ من جمع بين النوعين مبرزا فيهما فهو أن مبنى الترسل على أن يكون واضح النهج سهل المعنى ممتد الباع واسع النطاق تدل لوائحه على حقائقه وظواهره على بواطنه إذ كان مورده على الأسماع مفترق من خاصى وعامى وأفهام مختلفة من ذكى وغبى، فمن كان مستسهلا متساويًا ومتسلسلا ومتجاريا تساوت الآذان فى تلقيه والأفهام فى درايته والألسن فى روايته فيسع شارده إذا استدعى، ويتعجل وارده إذا استدنى فإذا تطاول أنفاس فصوله وتباعد أطراف موزونه وسهوله.

ومبنى الشعر على العكس من جميع ذلك لأنه بنى على أوزان مقدرة وحدود مقسمة وقواف يساق ما قبلها مهيأة، وعلى أن يقوم كل بيت بنفسه غير مفتقر إلى غيره إلا مضمنًا بأخيه وهو عيب فيه، فلما كان مداه لا يمتد إلا بمقدار عروضه وحزمه، وكلاهما قليلا وكان الشاعر يعمل قصيدته بيتًا بيتًا وكل بيت يتقاضاه بالاتحاد، وجب أن يكون الفضل فى أكثر الأحوال فى المعنى وأن يبلغ الشاعر فى تلطيفه والأخذ من حواشيه حتى يتسع له اللفظ فيؤديه على غموضه وخفاءه حتى يصير المدرك له والمشرف عليه كالفائز بذخيرة اغتنمها والظافر بدفينة استخرجها، وفى مثل ذلك يحسن إمحاء الأثر وتباطىء المطلوب على المنتظر فكل ما يحمد فى الترسل ويختار بذم فى الشعر ويرفض، فلما اختلف المبنيان كما بينا، كان المتولى لكل واحد منهما يختار أبعد الغايات لنفسه، فيه اختلفت الإصابتان لبيان طرفيهما وتفاوت قطريهما فبعد على القرائح الجملة بينهما يكشف ذلك أن الرجز خالف القصيد مخالفة قريبة ترجع إلى تقطيع شأو اللفظ وتزاحم السجع عليه قل عدد الجامعين بينهما لتقاصر الطباع عن الإحاطة بها فإذا كان الرجز والقصيد مع أنهما من واد واحد أفضت الحال بمتعاطيهما إلى ما قلت على خلاف يسير بينهما فالنثر والنظم وهما طرفين ضدين وعلى حالتين متباينتين أولى وأحق وأن السبب فى قلة البلغاء وكثرة الشعراء ونباهة أولئك وخمول هؤلاء فهو أن المترسل محتاج إلى مراعاة أمور كثيرة إن أهملها أو أهمل شيء منها رجعت النقيصة إليه وتوجهت اللائمة منهما بين مقادير من يكتب عنه وإليه حتى لا يرفع وضيعًا ولا يضع رفيعًا ومنها وزن الألفاظ التى يستعملها، تصار فيه حتى تجيء لائقة بمن يخاطب بها مفخمة لحضرة سلطانه التى يصدر عنها، ومنها أن يعرف أحوال الزمان وعوارض الحدثان فينصرف معها على مقاديرها فى